

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الدرس : 1 - سورة القلم - تفسير الآيات 17 - 33 ، تأديب الله لعبده

03-01-1998

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أيها الإخوة الكرام ربنا جل جلاله في سورة القلم روى لنا قصة أصحاب الجنة فقال تعالى:
﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) ﴾

[القلم: الآية 17]

أصحاب البساتين وأصحاب البساتين والمزارع

﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) ﴾

أي يقطفون ثمارها مُصبحين

﴿ وَلَا يَسْتَتْنُونَ (18) ﴾

لا يعطون منها شيئاً للمساكين

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) ﴾

لعلها موجة صقيع لا تُبقي ولا تذر ؛ لاحظ العلاقة بين النية والسلوك "

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) ﴾

مباشرة

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) ﴾

وكانها قُطِفَتْ لا شيء فيها ولا فاكهة ولا هم يحزنون فَعَقَدُوا اتِّفَاقاً بَيْنَهُمْ "

﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) ﴾

أي صباحاً "

﴿ أَنْ ائْتُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) ﴾

اليوم جئني القطف وتجميع الثمار وبيعها وتخزين أثمانها بالصناديق "

﴿ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (23) ﴾

أرادوا أن يُقطفوا الثمار بعيداً عن أعين الفقراء فَبَكَّرُوا

﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ (24)

بُخْلٌ وَشُحٌّ " وَاغْدُوا عَلَى حَزْدِ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا " قَالُوا هَذِهِ لَيْسَتْ بِسَاتِينَنَا إِنَّا لَضَالُونَ تَأْكُدُوا أَنْ الْبِنَاءَ نَفْسِهِ إِلَّا أَنْ الثَّمَارَ مَنْعِدْمَةً

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ (26)

ثم أدركوا أنّ الله أتلف محاصيلهم

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (27)

أي أقربهم إلى الله

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (28)

لو سبّحتم الله عز وجل لكان قلبكم رقيقاً ولأطعمتم المساكين ولكن حينما ابتعدتم عن الله قسى قلبكم وأردتم هذه الثروة وحدكم

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴾ (30)

كلّ يُنيح باللائمة على أخيه "

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ (31)

﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (32)

إتلاف المحصول والخسارة الكبيرة كانت سبباً في عودتهم إلى الله وسبباً في توبتهم ومحاسبة أنفسهم وفي إقبالهم وندمهم مغزى القصة في كلمة واحدة قال تعالى:

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾

أي أيّ عذاب يسوقه الله تعالى لعباده في الأرض من هذا النوع وليس هناك في الأرض شرّ مطلق شرّ للشر لا وجود له بل إنّ وجود الشر للشر يتناقض مع وجود الله قال تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُهْدِلُ مَنْ تَشَاءُ

بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (26)

الإعزاز خير والإذلال خير والإيتاء خير والمنع خير والأشياء الإيجابية نعم ظاهرة والمصائب نعم باطنة فالعطاء عطاء والمنع عطاء وربما كان المنع عين العطاء منعك لتأتفت إليه ومنعك كي تتذكّره وكي تحاسب نفسك وتقبل إليه وليسمع صوتك بالليل ولكي توجده لذلك المصائب لها حكم أنظر ضاع منهم محصول وثمرته كبير لكنهم

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ (31)

أي كنا في طغيان كبير

﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (32)

لولا هذا التأديب لما كان هذا الكلام ولولا هذه الشدة لما كانت هذه الشدة ولولا هذه المنة لما كانت هذه المنة لذلك قد تجد أن تسعين بالمائة من توبة المؤمنين هي تربية الله لهم والتضييق الذي أحاطهم به والشدة التي ساقها لهم والخوف الذي بثه في رؤعهم، فكلمة

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾

أي أي عذاب على وجه الأرض مُوظَّف للخير هو فيما يبدو شر إتلاف المحصول شر وإتلاف مال تاجر شر كبير إذ يُصبح في الوحل لكنه ما كان يُفكر بالصلاة في حياته ؛ مال وقوة ومَنعة ومكانة وأبهة وعظمة وما قال: يا رب ولكن لما فأس قال: يا رب على كلِّ الإنسان إذا أتى الله على قوته غناه وصحته فهذا شيء رائع جداً وإذا أتاه بعد المصيبة هذا كذلك شيء جيد لا بد من أن تأتيه، قال لي مرة أخ مُداعياً: ما مُلخص دعوتك ؟ وقلتها له بالتركيب العامي: إما أن تأتي مُسرِعاً وإما أن يأتي بك مُسرِعاً فهذا مُلخص الملخص والله عز وجل يعرف كيف يُعالج ويعرف المنطقة الحرجة والمؤلمة والتي تُفزع منها " كذلك العذاب " شاب وزوجته شاردان ومُتفقتان معهما المال والغنى والجمال ومن مكان إلى مكان ومن نزهة إلى أخرى لا يُصلون ولا يصومون ولا... عندهم فتاة صغيرة ملكت قلوبهم لجمالها ورؤعتها وأصيب بمرض خبيث فصاروا من طبيب إلى طبيب ومن تحليل إلى آخر ومن مستشفى إلى مستشفى مما جعلهم يأخذونها إلى بريطانيا فاضطرَّ أبوها وأُمُّها أن يبيعا بيتهما الوحيد ليعالجاها ؛ فجاءتهم خاطرة ولعلها خاطرة ملك لو أنكم تُبتم إلى الله لعل الله يشفيها فتاب الأب والأم فصارا يصليان والأم تحجبت وعاهدا ربهما على الطاعة والتوبة والاستقامة فترجع هذا المرض شيئاً فشيئاً وهذا الأخ من أصدقائنا بعد سبع سنوات دُعيت إلى عقد قران فألقيت كلمة ثم قلت له: هي هي فقال: هي هي تلك البنت التي كانت سبباً في إنابة والديها إلى الله فهذا المرض مُخيف ولكن مُحصَلته ؛ فيغد أن كانا مُتفكتين صار مُلتزمين وبعدهما كانا شقيين صاروا سعيدين وكانا مُعرضين فصاراً مُقبلين وكانا مُسينين فصاروا مُحسنين كل هذا عن طريق هذا المرض لذلك يجب أن تعلم علم يقين أن وراء كل مصيبة حكمة قد تعرفها وقد لا تعرفها، فهذه السيارة من أجل ماذا صُنعت ؟ أصل صنعتها من أجل أن تسير فهل يُعقل أن يُقنتي إنسان سيارة بدون مُحرك ؟ إذ أنها صُنعت كي تسير ولكن لماذا في السيارة مكبح فالمكبح يوقفها ؟ كل هذا من أجل سلامتها فالمصائب كالمكبح فأنت مخلوق للسعادة والعطاء والتكريم ولجنة عرضها السماوات والأرض لكن حينما الإنسان يشرد وينتبه تأتي المصائب كي تَرُدَّهُ إلى الله:

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾

فهذه السورة كلها بكلمة واحدة: " كذلك العذاب " أي عذاب على الإطلاق يسوقه الله لعباده هو من هذا النوع ؛ شحّ وبُخل وأثرة وحُبُّ للمال وقلب قاسي كراهية للعمل الصالح ؛ ثَمَارُ يانعة بالملايين ثمنها بحثوا عنها فما وجدوها فقالوا:

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) ﴾

فهذه قصة وقصة القرآن ليست للتسلية ولا للمتعة ولكن كي تستنبط منها حقيقةً تُلقِي لك نوراً في درب الحياة، قال لي كان عليّ زكاة قدرها إحدى عشر ألف وخمس مائة وثلاثين رقمٌ دقيق وكانت له زوجةً فقلت له: لا داعي لدفع الزكاة ولُنُدْهِن بها البيت وضغطت عليه حتى حملته على دفع الزكاة فاستجاب لها ولغى الزكاة وكانت عنده سيارة فأنضربتُ ومن أغرب الصُدْف أن كُلفت تلك السيارة إحدى عشر ألف وخمس مائة وثلاثين فأنه علمه درس لأنّ هذا حق الفقير وهذه القصة تتكرر مئات المرات في اليوم أما الإنسان يُحجم عن إطعام الفقراء والمساكين فأنه يُحرّمه ماله إلا أنّ هذا العذاب في الدنيا سهلٌ جداً لأنّ في آخر الآية قال تعالى:

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) ﴾

فأنه عز وجل من رَحْمَتِهِ يُدَيِّقنا من العذاب الأدنى لكي لا نستحق العذاب الأكبر قال تعالى:

﴿ وَلَنُدَيِّقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) ﴾

[السجدة: الآية 21]

ففي الدنيا هناك مرض وقهر وفقر وسجنٌ ودُلّ وإفلاس لكن هذا دون العذاب الأكبر وهو جهنّم لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسيّة: " وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبّ أن أرحمه إلا ابْتَلَيْتُهُ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ كَانَ عَمَلُهَا سَقَمًا فِي جَسَدِهِ أَوْ إِفْتَارًا فِي رِزْقِهِ أَوْ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّى أَبْلُغَ مِنْهُ مِثْلَ الذَّرِّ فَإِذَا بَقِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ شَدَّدْتُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ حَتَّى يُلْقَانِي كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ "